إطلالة المؤرخ الشيخ سالم بن حمود السيابي على الشؤون العمانية في حوارات من الشاطئ البعيد

الحلقة التاسعة

وصية الوالد على سطح شنطته

حمود بن سالم السيابي

أحسست بالاختناق ففتحت البلكونة أرقب حي كولابا الذي لا ينام خرجت الى البلكونة لكن البلكونة لم تخرجني من حالة الضيق التي تكتم أنفاسي فخرجت من الفندق ولكن عمامة ابي وكمته وشنطته تشدني للبقاء فهي ما تبقى من رائحته، ومع ذلك خرجت أحرث دروب بمبي حتى البحر، الهنود يمدون الصنارات ليصطادون سمكة جائعة تسعى هي الأخرى لا صطياد طعم صناراتهم، إنه صراع القوة وصراع البقاء، فالصياد يفترش الصبر انتظارا لاهتزاز الصنارة بين فكي سمكة صغيرة قلقة، والسمكة تخاتل الصياد شبه النائم لتخطف الطعم كغنيمة وبأقل الخسائر. لكم تمنيت أنا أيضا أن أمد صنّارتي، وأجاور هذا الهندي العجوز والجائع والذي لم يخرج من فلسفة غاندي بأكثر من حرق العمر في ليل بمبي تحسبا لطمع السمكة المتمردة، لكم تمنيت مثله ان أمد الى بحر الهند صنارتي ولكنني لن افترش مثله الصبر بل افترش الاستعجال لأصطاد ضوء الصباح من حي كولابا الى بريتش كاندي في ديساي للاطمئنان على أبي المسجى هناك ولأسترد أجوبة مطمئنة عن الاسئلة المفتوحة للوصية التي تتلوى حول رقبتي في الفندق بحيث تكون الأجوبة مجرد التزام المؤمن بمقاصد المعتقد والضرورات الإسلامية وليست إحساسا من والدي بدنو أجله الذي اتمنى أن يمتد ويمتد إلى ما لا نهاية .

واصلت تجوالي اذرع شوارع شاطئ كلابا اتحسس انفاس الصيادين وارقب صنارة عجوز ممدودة إلى بحر الهند تغازل موجاته المتعبة وترتعش على وقع سمكة نهمة فيما ابتسامة تتلألأ خلف شفتيه فيما كان شعر أبي الترياق الذي اتداوى به واخفف من قلقي وتوتري.

من فيوض الغيوب ضاق الفضاء
كل آن فعز منها اتقاء
ونفوس الورى رهاين غيب
ما لها قط من أسار فداء
وهيولى الوجود سر مصون
تعجزن عن دراكه العقلاء
وحياة الورى بواعث وحي
ما درت اصل نشئها الانبياء

تمددت في الغرفة الموحشة مستحضرا ما حفظت من آيات ليطمئن بها القلب ولكن الوساوس تنقلني الى بريتش كاندي والعملية ومبضع الجراح وقدرة ابي السبعيني على مواجهة الموقف وهو الذي حذر الكثيرين من اصدقائه من الجذاع طومس وهاهو لأول مرة بين جذاعين يملكون نفس المشرط وذات المبضع والادوات ونفس الارادات. فيما كان وجه محمد المخلدي يتهادى من سواد الليل وعتمة الجدران الكالحة في غرفة دبلومات وقد استحضرته هنا جالسا بجوار والدي يسرد له رؤياه في المنام ويبشره بحسن الخاتمة حيث راى في النوم كأنه في الجنة وبها من القصور التي ما رأت العين مثلها وحين سأل عنها قيل له انها لقضاة مسقط ومن بين اكبرها وافخمها كان قصرا للوالد وقد استبشر الوالد برؤيا صديقه كما كتبها له وكما جاءه خصيصا من بلدة سرور ليبشره بها .وهاهي ظنوني وخيالاتي تستحضرها الان وكانها تستعجل دنو الأجل وحسن الختام .

غبت لفترة لم أقدرها فصحوت مفزوعا على رنين الهاتف يوقظني كما طلبت منه صليت الفجر ثم احتواني سائق التاكسي الذي نهض هو الآخر مبكرا يستعجل رزقه كالطير تغدو خماصا، يعبق شعر السائق برائحة زيت النارجيل فتتداخل مع رائحة عقد الياسمين الذي يتارجح من مرايا سيارته ربما هو هدية حبيبته ليستقبل الصباح بروح مقبلة على الحياة . تفاءلت بالرجل الذي قال ان اسمه محمد اسلام فتركته ينهب الطريق الى ديساي نهبا على انغام أنشودة هندية تتسلل من كاسيت السيارة ويتسكب صوتها الرخيم كالندى على اشجار شوارع بمبي الباسقة فتزداد بعذوبة الصوت اخضرارا وهفهفة ورغم حبي للسرعة في ذلك العمر العشريني حين اسوق الا اني اخشاها حين أكون في الكرسي المجاور للسائق وحين يتولى احد القيادة فأتتنقل بعيني بين مؤشر السرعة ومفاجآت الدرب وسوء الاحتمالات على عكس الوالد الذي يشجعنا على زيادة السرعة لانها في نظره شطارة واحتراف فالوالد اعتاد على الاحصنة التي تخضع لمعايير السبق في التصنيف والافضلية الا انني مع محمد اسلام امنت بنظرية الوالد فتركته يتفنن في طي الطريق ويسجل ارقامه الخاصة هذا الصباح الهندي .

وصلت الغرفة وفوجئت أن الممرضة تسلم زميلا لها ملابس العملية فالوالد الاسد الهزبر رفض أن يرتدي لباس العملية وأصر ان يدخلها بدشداشته (الجيلانية الخضرنج) المعتقة حيث يشم فيها رائحة

روغ وادي سمائل. سلمت عليه وقلت له كأنها تريد تلبسك ملابسهم فقال: (الخسفة جايبة ملابس كسيفة وتقول ان هذا قانون المستشفى قلت لها انا سادخل العملية بدشداشتي واذا هذا يخالف قانونكم فانا متعذر من عمليتكم وكانها وافقت اخيرا.

قلت في نفسي طالما إن ادارة المستشفى استسلمت لرغبته فمن العبث أن أقنعه فقد يطالني توبيخه وشرار غضبته ففضلت التسليم والانحياز لصواب رأيه رغم ان لباس المرضى في كل مستشفيات العالم يخضع لهذه المعايير والاشتراطات فقلت له (زين سويت فيهم أحسن لك بدشداشتك).

وأنا على يقين أن مئات الحالات مثل الوالد مرت عليهم وأنهم يجارونه في الكلام ولكن بعد سريان التخدير سيتولون أمرهم، كانت روحه المعنوية عالية وقد جلبت اليه السرور حين أبلغته أن الخال الشيخ سعيد بن خلف الخروصي يعتزم المجيء الى بومبي وبصحبته اولاده محمد ومحمود واحمد، كما أن الشيخ سعيد الكندي قاضي بركاء موجود هنا بصحبة نجله وبذلك تكون بمبي محظوظة بوجود أربعة قضاة يجتمعون بها في شهر واحد .

فقال: يبدو ان القضاة كلهم مرضى. قلت له: ولكن القضاء العماني معافى بكم والمؤمن مذكور وستعودون جميعا باذن الله اصحاء تؤدون رسالتكم السامية بأذهان لا يشتتها الشعور بالوجع ولا تضطركم الامراض للغياب بعيدا عن منصة العدالة، ولقد قرأت رسالة معالي السيد وزير العدل وكأنه يتذمر لغياب القضاة عن المحكمة .فقال الوالد محتجا والسمار لما يغيب اشهرا في العلاج ألا يتذمر من له صلة مباشرة بوجوده؟ فلماذا يقبل على نفسه ما لا يقبله على غيره؟

اقتربت الساعة العاشرة وجاءت العربة تتسكع في خيلاء بين ممرات المستشفى لتنقل الوالد الى غرفة التخدير ومنها الى غرفة العمليات والوالد في قمة أريحيته وخشوعه وانقياده للاقدار وقد استودع نفسه عند خالقه الذي لا تضيع عنده الودائع وقد ازداد نفاؤلي فتلك بشارة المؤمن يقرأها الوالد وسيعود بعد ساعات الى سريره وسيفوق من نوبة التخدير بإذن الله وسيملأ المكان عظات وحكايات وقصائد .تقدمت العربة فلم أشأ أن أتبعها حتى لا تبدو كجنازة، وشفتاي ترتجف وتتبتل

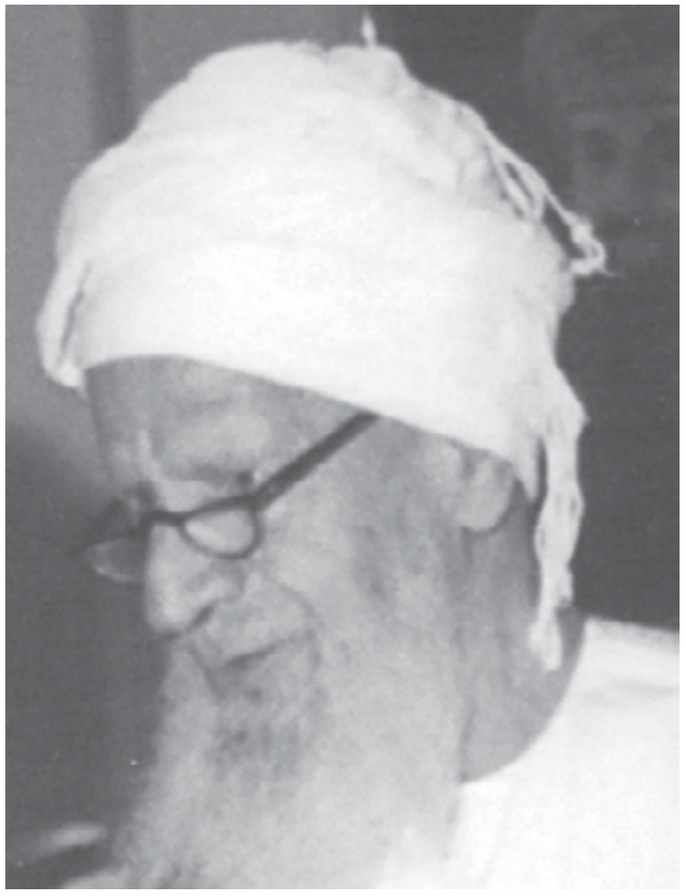

وتتهجد .ودخلنا المصعد ومنه إلى غرفة العمليات، وحين أغلقوا الباب تزاحمت نفس صور غرفة دبلمات الوساوس والوصية ورؤيا محمد المخلدي لقصر الوالد في الجنة وعدت يأكلني الحزن إلى غرفته في المستشفى وسريره الذي كان به قبل دقائق يجادل الممرضة الخسفة وينتصر عليها بدشداشته الخضرنج.

أفقت من انكساري على صوت بشدور الذي جاء للاطمئنان على الوالد فابلغته بما جرى فسألني ما اذا كنت فطرت قلت: وهل تعشيت حتى أفطر ليست لدي رغبة في الأكل اصر أن يجرني الى مطعم المستشفى فتناولنا المتيسر من الافطار عندهم والبال مشغول وكأنه يشارك الطاقم الطبي تجواله في جسد أبي وبعد ساعتين أبلغونا أن العملية تكللت بالنجاح وأن الوالد في غرفة العناية الفائقة للمزيد من الرقابة عليه وسيخرج بعد ساعات الى سريره وبالفعل كتب الله له الشفاء وعاد ولكن آثار التخدير تثقل رأسه ولسانه وتركيزه فكان يرد بصوت خافت وهو الذي لصوته تتزلزل الجدران .

وقبل أن تدخل بمبي ليلتها ورومانسيتها كان الوالد قد افاق وهو يسعى لتذكر ما حصل له من غياب عن الوعي فلم يستطع ففرح حين رآنا بقربه وكما انتصر الوالد على الممرضة في البقاء بدشداشته انتصرنا في بقاء أحدنا معه دون حاجة لممرضة فافترشت السيراميك البارد من المكيف الهندي الصنع الذي لم ينجح في استنساخ تقنية هدوء الصوت من الجنرال الياباني واكتفى باستنساخ البرودة.